تدركه القلوب

بقلم الروائية: رباب كساب

كثيرًا ما تساءلت عن هذا الذي يهددونني بغضبه، ويتوعدونني بناره، ويعدونني بجنته، أين هو؟ أشاروا عاليًا نحو السماء، نظرت بعينَيْ طفلةٍ في طور الاكتشاف إلى السماء؛ طالعتني النجوم، ومراتٍ غَشِيَ عينيَّ نورُ الشمس، صاحبني القمر، لكني لم أره، أين هو؟ قالوا: «لا تدركه الأبصار»! الأبصار لا تدرك الكائنات الدقيقة، تلك التي نحتاج إلى ميكروسكوبات كي نراها! لا تدرك الخلايا! لا ترى الطفرات الجينية! ولا تعرف كيف تراقب سير الدم في الأوردة والشرايين! ولا يمكنها أن تشاهد ما يفعله الكلوروفيل أثناء عمليات التمثيل الضوئي داخل النبات!

العين لا ترى الكثير، لا تقولوا: «لا تدركه الأبصار» فقط وتكتفون، إن كل ما لا تدركه الأبصار آية من آيته، عليكم أن تقولوا -بلا موارية-:»تدركه القلوب».

عرفته البصيرة، وعرفه قلبي، وامتلأ به مرات ومرات، في لحظات رضاه ولحظات سخطه... أعرف أنه إلى جواري.. أشعر به حين أَمُرّ ببائع بسيط لأشتري شيئًا، فإذا بالرجل يترك ما بيده لينظر إليّ ويلهج لسانه بدعاء كنت بحاجة إليه، أو حين أكون في ضائقة فتقابلني عجوز تكاد تسقط على الأرض من فرط الوهن والتعب، فأسندها، وأحمل عنها أشياءها، فتربت على كتفي بحنان، وتبتسم ابتسامة تزيح ضيقي، قبل أن تختفي من أمام عيني، أَرسلها لي.. أعلم أنه بعثها ليقول لي: أشعر بكِ.

إنني أراه حقًّا.. أراه بلا كذب؛ ذات صيف وكان ميدان الثورة عامرًا بأهله.. كانت الشمس قاسية.. مررت أبحث عن بائع المراوح التي يمسكها الجميع من حولي، لا أعرف أين اختفى، وقبل أن أكف عن بحثي مَرَّ بي رجل قصير لا أعرفه؛ مد لي يده بالمروحة ومضى، دون أن أبرح دهشتي وأشكره، إنه هو؛ يخفف عن القلوب، يربت على ظهور عباده، الرحمن الرحيم دائمًا.

قبل سنين شعرت بظلم لأنني لم أحظ بما أستحق، وأُجبرت على دخول مكان ليس لي، شعرت بنقمة وغضب كبيرين لا يفارقانني، مر عام وآخر، وزاد عام وآخر، ولازال غضبي في قمته، حتى جاء يوم، وفي لحظة فراغ قاتلة، تأملت فيها ما مضى، فرأيت أن ما أغضبني هو أكثر ما ناسبني بالفعل، ما كان لي سواه، لقد انتقى لي؛ إنه يعرفني، يراني وأراه!!

إنـه يسـكنني! ليـس لأنـه سـمح لي مرتـين أن أشـعر بـه بداخـلي، مرتـان في عمـري، بينهـما سـنوات تزيـد عـن السـنين العـشر: المـرة الأولى كنـت في واحـد مـن بيوتـه، وحـين دخلتـه، وجدتنـي أَخِـرُّ سـاجدةً، بقوتـه وجـلال حضرتـه؛ احتضنـت وجـوده بالصـلاة، المـرة الثانيـة كان قلبـي قـد فتـح مصراعيـه ليحـب، وفي غمـرة إحسـاسي بأننـي وجـدت ضالتـي وجدتـه يملـؤني بنـور وإحسـاس أكـبر مـن وصفهـما، كان معـي، كان بداخـلي، إنـه يباركنـي، فاطمـئن قلبـي وسـكن، لكنـه لم يسـكُنِّي لهـذا، أعـرف وجـوده داخـلي حـين أقابـل في الصبـاح ابتسـامةً مـن وجـوهٍ لا أعرفهـا، حـين يشـملني دعـاءٌ لم أَقُلْـهُ، لم يُـرَدِّدْهُ لسـاني، لكنـه يرسـم عـلى وجهـي رغبتـي، ويلبيهـا أنـاس لا أعرفهـم ولا يعرفوننـي، فأعـرف أنهـم رسـله الطيبـون، وأراه جليًّـا.